الانتفاضات العربيّة: اليسار والقوميّون بين الفشل وقصور الأداء

□ علاء اللامي

لذكرى رحيل هادي العلوي الرابعة عشرة

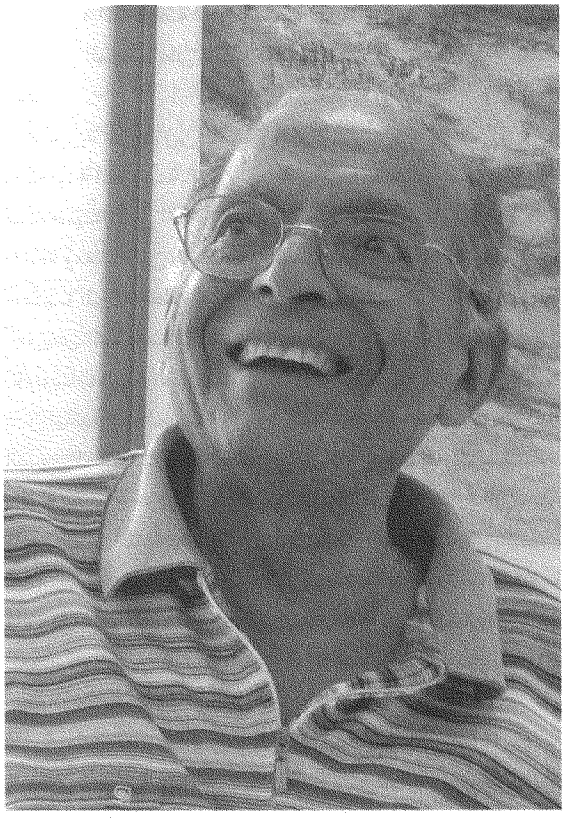

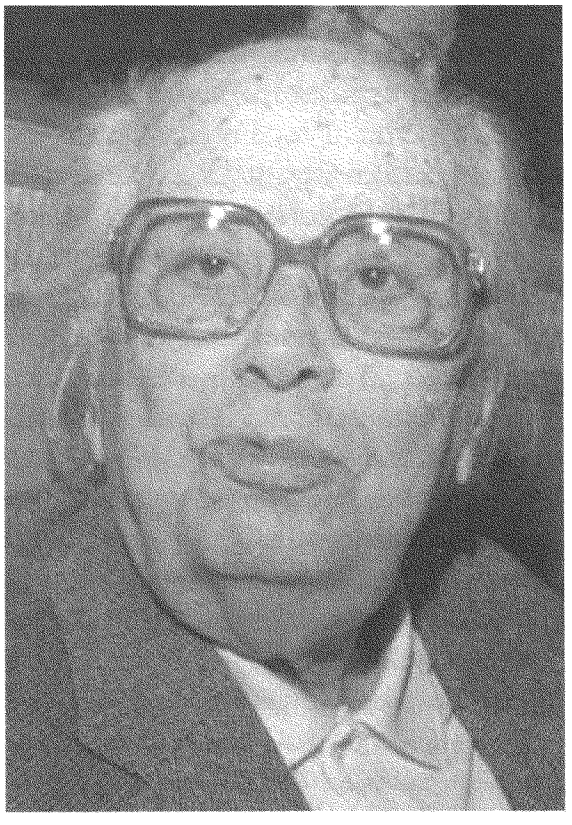

لا يمكن الحديثُ عن التيّارات التقدميّة والديموقراطيّة في العالم العربيّ، وخصوصًا التيّاران اليساريّ والقوميّ العروبيّ، خلال «الربيع العربيّ،» من دون الأخذ بعدد من المحاذير، التي قد تتّخذ شكلَ الضرورات اللازمة لأيّة عمليّة نقدٍ وتقويم. ومن ذلك:

- ضرورة معرفة درجة النسبيّة في ما يعتبره البعضُ فشلاً كاملاً لهذه التيّارات في الحضور والأداء. فالواضح أنّ من الأصوب، في بعض الحالات والساحات، الحديثَ عن نوع من «القصور الكبير،» لا عن الفشل الكامل. ففي مصر وتونس، على سبيل المثال، وفي سوريا إلى درجةٍ معيّنة، كان للتيّارات اليساريّة حضورٌ يمكن رصدُ حيويّته الفائقة وفعّاليّاته المتنوّعة في الشارع المنتفض. ويمكن الإتيانُ بالعديد من المناسبات التي كان حضورُ التنظيمات اليساريّة فاعلاً فيها رغم تواضعها التنظيميّ والجماهيريّ: كحزب العمّال الشيوعيّ بقيادة حمة الهمامي والحزب الديموقراطيّ التقدميّ بقيادة نجيب الشابّي في تونس، وحركة ٦ أبريل والحزب الاشتراكيّ الثوريّ في مصر، والحركات اليساريّة والديموقراطيّة السوريّة الرافضة للتدخّل الخارجيّ كهيئة التنسيق والمنبر الديموقراطيّ. ومع ذلك، فإنّ هذا الحضور لم يسفرْ عن نتائج مهمّة بعد الانتخابات في

مصـر وتونس خصوصًا. أما في اليمن فصـورةُ الحضور اليساريّ، خصوصًا في شمال البلاد، تبدو شاحبة (ربما كان حضورُ التيّارات الناصريّـة والبعثيّة أبرز)؛ أما في الجنوب، فحضورُ اليسار مشدودٌ إلى أجندة الحزب الاشتراكيّ ذات الأهداف الانفصاليّة.

– من الضروريّ إعادةُ النظر في العديد من الأسماء والمسمّيات بهـدف التفريق بيـن اليسار التقليـديّ الذي اندثر قبـل «الربيع العربـيّ» بزمـن ليـس بالقصيـر، وبين يسـارٍ آخر غيـرِ تقليديّ (ذكرنـا أمثلـة عنه) يحـاول بشجاعـةٍ ودأبٍ الخـروجَ من عنق الزجاجـة والانغراسَ فـي الواقـع الجديـد والحـراك الثـوريّ المستمـرّ. ومن أبرز الأمثلة على «اليسـار» المندثر، أو الذي في سبيلـه إلى الاندثار، الأحزابُ الشيوعيّـة واليساريّة التقليديّة في تونـس بقيادة محمد حرمل، وفي سوريـا بقيادة آل بكداش، وفي مصـر بقيادة رفعت السعيد. أما فـي العراق فليتَ الحزبَ هناك (بقيادة الرفيق «الخالد في منصبه» حميد مجيد موسى) اندثر بصمـتٍ واحتـرامٍ كأشقّائه، بدلاً مـن أنْ يبقى موجـودًا ليسجّل سابقةً تاريخيّـةً سوداء في سرديّات الحركـة الشيوعيّة العالميّة حيـن اصطفّ مع محتلّي بلاده وشارك «بنشاط» في مجلس حكم شكّلـه الحاكـمُ الأميركـيُّ بول بريمـر على أساس المحاصصة الطائفيّـة، فكان للحـزب مقعدُه المحسوبُ علـى «كوتا» الطائفة الشيعيّة!

أما التيّار القوميّ العروبيّ، وتحديدًا الناصريّ، فليس ثمة الكثير ممّـا يمكـن أنْ يقال بصـدده، إذْ انحصر وجـودُه في مجموعات صغيـرة وهامشيّـة في تونـس ومصر، وفـي شخصيّـة سياسيّة معروفة أحرزتْ نتائجَ طيّبةً في الانتخابات المصريّة، هي حمدين صبّاحي، مع أنّ الرجل لا يمكن اعتبارُه امتدادًا صميميًّا للتجربة الناصريّة الأصليّة إلّا بشكل رمزيّ. ومع ذلك، فلا تمكن المبالغةُ في التقويـم السلبيّ لمستويـات أداء مكوّنات النـوع الأول، الذي أطلقنا عليه «اليسار غير التقليـديّ،» أو مساواتُها بعضها ببعض في جميـع البلـدان العربيّة التي شهـدتْ أنماطًـا مختلفةَ العمق والشـدّة من الحراك الثوريّ. فعلـى سبيل المثال لم يكن مستوى أداء اليسار التونسيّ مختلفًا كثيرًا عن مثيله في مصر أو سوريا. أما في ليبيا فلا يمكننا الكلامُ أصلاً على وجود يسارٍ من أيّ نوع كان لأنّ جراد الدكتاتوريّة القذّافيّة التهم الأخضرَ واليابسَ طوال أربعـة عقودٍ من حكمه، ولا عبرةَ هنا في ترويج أكذوبة الناتو عن انتصار التيّار الليبراليّ الليبيّ في مسرحيّة الانتخابات الأخيرة – فأيُّ ليبراليين أولئك الذين بدّدوا أكثرَ وقتهم في وسائل الإعلام لينفوا عن أنفسهم صفة «اللبراليّة»؟!

– ضـرورة الانتباه إلـى عدم ثبـات الأوضاع التـي تمخّضَ عنها الحـراكُ الجماهيريُّ في البلدان العربيّة، وهو ما يصعّب إطلاقَ الأحـكام الجازمـة وتصـوّرَ النتائج الثابتـة التـي أحرزتْها هذه القوةُ السياسيّةُ أو تلـك. ويمكن ربطُ هذه السيولة والترجرج في النتائـج بأمورٍ موضوعيّـةٍ تتعلّق بطبيعة المجـرى المتعرّج الذي سلكتْـه عمليّةُ التطوّر التاريخـيّ للمجتمعات العربيّة طوال القرن الماضي، وبأمورٍ ذاتيّةٍ تخصّ القوى الاجتماعيّة المشاركة. وفي هـذا الصدد، لا يمكن تحميلُ اليسـار والقوميين العروبيين وحدهم مسؤوليّةَ الفشل الحاصل تاريخيًّا، بل تتحمّل المجتمعاتُ العربيّةُ ـ ككلّ ـ مسؤوليّةَ الإخفاق التاريخيّ الهائل في الانتقال من عصورٍ ما قبل التاريخ المدنيّ الى ما بعده.

كمـا تنبغي الإشـارةُ إلى إنّ ظاهرة عدم ثبـات الأوضاع والنتائج تشمل قـوًى لا يمكـن احتسابُها ضمـن قوى النهضـة والحداثة، كالتيّـارات الإسلاميّـة المحافظة. فلقد خسـرتْ حركةُ الإخوان المسلمين المصريين مثلاً، وخلال فترة قصيرة جدًّا هي الفترة الممتـدّة بين الانتخاباتِ التشريعيّـة والرئاسيّة، أكثرَ من نصف كتلتها الناخبة، لأسبابٍ متعدّدة، منها أداؤها السياسيّ وانكشافُ برامجهـا ومخطّطاتها. وهذه الواقعة تفنّد أطروحاتِ العلمانيين المصابيـن بالرُهـاب الإسلاميّ، والذين يَعتبـرون وصولَ القوى الإسلاميّة المحافظة الـى السلطة نهايةَ التاريخ وكارثةَ الكوارث والدليـلَ المفحِمَ على سلبيّة «الربيع العربـيّ» ككلّ... بل رجعيّته أيضًا.

– ضـرورة الربط بين القصور الكبير في أداء التيّارات اليساريّة والقوميّـة العروبيّـة، وبين أزمـةٍ كيانيّـةٍ، قديمةٍ وعميقـةٍ وشبه مستعصيـة، فـي أسـس هـذه التيّـارات وطبيعتها. ثمـة تشكيلة واسعة ومعقّدة من الأسباب والمسرّعات وراء هذه الأزمة، يرجع بعضُهـا الى الانقطاع شبهِ التامّ بين القـوى الحداثيّة وجمهورها العريض. كما لعب الانحـرافُ الحزبويّ، والخلطُ البرنامجيّ في الأولويّـات، لـدى هذه القـوى، دورًا سلبيًّا قويًّـا ساهم في عزلها عـن بيئتها المجتمعيّـة، وسَهّل مهمّةَ ضربهـا وتحجيمها من قِبل القـوى المحافظة فـي الحكم أو خارجه. ولتوضيـح ما نقصده بـ «الانحـراف الحزبويّ وخلط الأولويّات» تمكـن الإشارةُ إلى نزعةٍ راسخةٍ لدى أغلب هذه القوى، وخصوصًا الماركسيّة، إلى إعطاء الجانـب الإيديولوجيّ الأولويّـةَ، بحيث تتحـوّل مهمّاتُها الطبقيّة والاجتماعيّـة إلى هامشٍ يمكن الاهتمامُ به في المناسبات، كعيد العمّال العالميّ وذكرى تأسيس الحزب وما إلى ذلك من نشاطاتٍ احتفاليّة لا تقدّم ولا تؤخّر.

هنـا يمكن أنْ نستذكـر ما كتبه المفكّرُ العراقـيّ الراحل هادي العلـوي فـي تقويمه لملـفٍّ فكـريٍّ نشرته مجلّـةُ **الطريـق**، التي يصدرهـا الحـزبُ الشيوعـيّ اللبنانـيّ، فـي تسعينيّـات القرن الماضي، وطلبتْ هيئةُ تحريرها إلى الراحل كتابته لكنها رفضتْ نشرَه لاحقًا من دون إيضاح الأسباب، ربّما لأنّها أكثر من واضحة! كتب العلوي، آنذاك، وكأنه يعيش في أيّامنا هذه:

«إنّ الصـراع الحقيقـيّ فـي الساحـات الحقيقيّة ليـس صراعًا فكريًّـا، ومشكلتنا ليسـت مشكلة إيديولوجيّة، ومـا هو مستهدفٌ من قِبـل العدوّ ليـس الثقافـة ولا المثقّفين، بل أرضنـا وثرواتنا وكرامتنـا الوطنيّة. فالصراع هو صـراعٌ بين معتدٍ ومعتدًى عليه، بين شعوبٍ وقوى احتلالٍ واستعمار. ويتلازم ذلك مع استهدافات أنظمـة الفساد، وهي فـي الوقت نفسـه أنظمةُ خيانـةٍ وطنيّةٍ...

لعلّ من أهمّ المقاربات التي يجب على قوى اليسار والتيّارات القوميّة الديموقراطيّة، شبابًا وقيادات، صياغتُها وتقديمُها، هي الخاصّة بالتعامل مع القوى الإسلاميّة المهيمنة اليوم.

إنّ الحزب الشيوعيّ منظّمة اجتماعيّة سياسيّة، ولا علاقة له بالثقافة ولا بالعلوم، بل هو أداة نضال وطنيّ وطبقيّ، وأفضلُ أعضائه ومناضليه هم الأمّيّون، وأسوأهم العلماءُ والمثقّفون. ليس للشيوعيّة صلة بالثقافة ولا بالإيديولوجيا، بل هي موقفٌ طبقيّ خالص.... إنّ الشحّاذ في مجتمعاتنا يعرف عن الشيوعيّة أكثرَ من قادة الأحزاب الشيوعيّة حين يمدّ يدَه فيقول «من مال الله» متحدّيًا أهلَ المال بأن يعيدوا إليه حصّته في المال العامّ الذي يستولون عليه، بينما يتبارى الكثيرُ من شيوعيينا اليوم في التبشير باقتصاد السوق بوصفة الحلّ السحريّ لأزمة الإنسان الذي يسحقه اقتصادُ السوق ويجرّده من جوهره الإنسانيّ.»[1]

ترسم هذه الكلماتُ اللاذعة، التي قد لا تخلو من الطابع الرغبويّ واليوتوبيّ، حدًّا فاصلاً بين البرنامج الطبقيّ التقدّميّ المطموح إليه والمتناغم مع البيئة الاجتماعيّة والغائبِ عنها حتى الآن، وبين ما هو حاضر (أنطولوجيًّا؟) ولكنه يعيش حالةَ اغترابٍ حقيقيّةً عن بيئته وحاضنته الاجتماعيّة. هنا، نضع أيدينا على أهمّ سبب من أسباب حالة العزلة وقصور الأداء التي عاشتها التيّاراتُ والقوى الحداثيّة، سواء كانت اشتراكيّة أو ديموقراطيّة أو قوميّة عروبيّة، وانتهت باندثار بعضها وتحوّل البعض الآخر إلى كيانات رمزيّة لا أثر لها في الواقع الراهن. أما الصنف الذي أفلت من هذه المصائر فكان له حضورُه الذي تقدّم وصفُه، وله أسبابه المختلفة، ومنها ما جاءت بها رياحُ «الربيع العربيّ» ذاتِه، وتعاملتْ هذه القوى معه بذكاء وموضوعيّة؛ ومنها ما يعود إلى طبيعة المرحلة التاريخيّة الشديدة الخصوصيّة التي فهمتْها هذه القوى وبرمجتْ حضورَها وحركتَها بموجب حقائقها. غير أنّ تكرارَ هذه القوى لأخطاء القوى القديمة التي اندثرتْ أو كادت، وخصوصًا تغليبها لما هو هامشيّ على ما هو رئيسيّ، والتهاونَ في القضايا الطبقيّة والوطنيّة والقوميّة تحت شتّى الذرائع اللبراليّة الجديدة والقديمة، لن ينجيانها من مآل العزلة والاغتراب، ومن ثم الاندثار المحتوم. ولعلّ من أهمّ المقاربات التي يجب على قوى اليسار والتيّارات القوميّة الديموقراطيّة، شبابًا وقيادات، صياغتُها وتقديمُها، هي الخاصّة بالتعامل مع القوى الإسلاميّة المهيمنة اليوم. فلعلّها أن تكون مقاربة ترفض العداءَ المجّانيّ، والبدائيّ، الذي لا يخلو أحيانًا من العداء لكلّ ما له علاقة بالإسلام حضارةً وتراثًا عظيمًا ومنجزاتٍ عالميّة؛ مقاربةً تفصل فصلاً تامًّا بين الحركات التكفيريّة الدمويّة المعاديةِ للحياة والتقدّم، وهي حركات صغيرة وهامشيّة وممقوتة جماهيريًّا، وبين حركات سياسيّة إسلاميّة مسالمة وأخرى تنويريّة مناضلة ضد الهيمنة الغربيّة والعدوان الصهيونيّ. أما الأمل في بزوغ حركات إسلاميّة ديموقراطيّة لا تخلو من المضامين والصبوات الطبقيّة الثوريّة، بما يذكّرنا بتجربة «لاهوت التحرير» في أميركا اللاتينيّة، والتي ناضل فيها، إلى جانب الثوّار اليساريين، رجالُ دين كاثوليك،[2] فيبقى معقودًا في رحم الغيب!

إنّ مقاربة من هذا النوع، جديدةً ومنفتحةً على المستقبل، ليست ترفًا نظريًّا وإيديولوجيًّا، بل هي أقربُ إلى شبكة من المهمّات العمليّة التي ينبغي على التيّارات اليساريّة الاجتماعيّة والقوميّة الديموقراطيّة البدءُ بالتخطيط لها مع اقتراب احتمال انطلاق الموجة الثانية من «الربيع العربيّ»، وهي الأهمّ والأخطر لأنّها ستستهدف ـ على ما تؤكّد أغلبُ الاستشرافات التحليليّة والقراءات الإستراتيجيّة ـ أنظمةَ التخلّف والتبعيّة للأجنبيّ في الجزيرة العربيّة والخليج، وستمتدّ إلى ما تبقّى من جمهوريّاتٍ وممالكَ في مغرب العالم العربيّ ومشرقه!

جنيف

علاء اللامي
كاتب عراقيّ. والصورتان ص٦٣ لرفعت السعيد ومحمد حرمل.

(١) **المرئيّ واللامرئيّ في الأدب والسياسة** (بيروت: دار الكنوز الأدبيّة، ط ١، ١٩٨٨)، ص ٤٢.

(٢) من هؤلاء الأماجد: رئيس أساقفة البرازيل هيلدر كاماراو، والراهب الكولومبيّ الشهيد كاميلو توريز الذي حمل السلاح وقاتل إلى جانب الثوّار الماركسيين حتى قُتل في مواجهة قوات الدكتاتوريّة، ورئيسُ أساقفة السلفادور أوسكار روميرو الذي اغتاله عملاءُ المخابرات المركزيّة الأميركيّة.